University of Zawia - Rewaq Alhkma Journal (UZRHJ)
Volume 8, Issue 1, (2024), pp. 171-188

Maritime activity during the era of the Umayyad caliphs (41-132 هـ / 662-750 م)

Mona Hudood

Faculty of Arts - University of Zawia
Zawia - Libya
EMAIL: m.hudoud@zu.edu.ly

Received:25/ 04/2024 /Accepted:05/ 05/2024/ Available online:30/06/2024./DOI:10.26629/UZRHJ.2024.12

ABSTRACT

The naval wars were fought during the time of Caliph Othman bin Affan, at the insistence of his governor in the Levant, Muawiyah bin Abi Sufyan, citing the proximity of the Romans to the cities of the Levant and the response to their repeated attacks on them. Caliph Muawiyah established the first Islamic fleet, and Muawiyah's interest in the fleet continued until he assumed the Umayyad Caliphate, where he built a naval force that contributed to many Islamic conquests. Caliph Muawiyah and his predecessors after him tried to control Constantinople many times, but their attempts failed, and despite this failure, it strengthened The status of Muslims forced Byzantium to abandon their projects to recover the lands that had fallen within the territory of the Islamic State, and the project to conquer Constantinople remained a dream for Muslims until the Ottoman Sultan Mehmed the Conqueror was able to conquer Constantinople seven centuries after its conquest.

Keywords: Maritime activity - the Umayyad state - Umayyad caliphs

"Articles published in *Univ Zawia Rewaq Alhkma* J are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License."

النشاط البحري في عهد خلفاء بني أمية (41-132 هـ/662-750 م)

منى حدود

كلية الآداب/ جامعة الزاوية
الزاوية – ليبيا
EMAIL: m.hudoud@zu.edu.ly

تاريخ الاستلام: 2024/04/25م تاريخ القبول: 2024/05/05م تاريخ النشر: 2024/06/30م

ملخَّص البحث:

كان خوض غمار الحروب البحرية في زمن الخليفة عثمان بن عفان و ذلك بإلحاح من واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان معللاً ذلك بقرب بلاد الروم من مدن الشام ورد هجماتهم المتكررة عليهم . فأنشأ الخليفة معاوية أول أسطول إسلامي واستمر اهتمام معاوية بالأسطول حتى توليه الخلافة الأموية ، حيث قام ببناء قوة بحرية أسهمت في كثير من الفتوحات الإسلامية ،وحاول الخليفة معاوية وأسلافه من بعده السيطرة على القسطنطينية مرات عديدة إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل، وبالرغم من هذا الفشل إلا أنها عززت مكانة المسلمين وأجبرت بيزنطة على التخلي عن مشاريعهم في استعادة الأراضي التي دخلت في رقعة الدولة الإسلامية ، وبقى مشروع فتح القسطنطينية حلماً يراود المسلمين حتى تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح من فتح القسطنطينية بعد سبعة قرون من فتحها.

كلمات مفتاحية: النشاط البحري ـ الدولة الأموية ـ خلفاء بني أمية

المقدمة:

بدأ المسلمون منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان(23-35هـ) نشاطهم العسكري البحري ، وكان الهدف من ذلك حماية ثغور وموانئ الدولة العربية الإسلامية ، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب سابقاً قد نهى الولاة من ركوب البحر ، وذلك لإدراكه لأن المسلمين تنقصهم الخبرة والتجربة لخوض غمار الحروب ، لذلك نهى عامله على الشام معاوية بن أبي سفيان عن ركوب البحر، ولما توفي عمر بن الخطاب (13- 23 هـ) أذن الخليفة عثمان بن عفان لمعاوية بركوب البحر لقتال الروم ، وفتح الجزر المقابلة لسواحل الشام وتحويلها إلى قواعد لمواجهة الخطر البيزنطي في البحر المتوسط حيث قام بنشاطه البحري حتى نهاية العهد الراشدي وابتداء العصر الأموي في سنة 40هـ / 661 م، حيث أصبح البحر المتوسط مياه إسلامية عن طريق سلسلة من العمليات العسكرية البحرية ، وبفضل جهود الخلفاء الأمويين الذين وضعوا أساس القوة الإسلامية في البحر المتوسط ، فخلال العصر الأموي شن المسلمون ثلاثة حملات على العاصمة البيزنطية القسطنطينية، إلا أنها باءت بالفشل ، وتأتي أهمية الموضوع لكون الأسطول يشكل دوراً مهما في عمليات الفتح الإسلامي وأداة مهمة لاتساع رقعة الدولة الإسلامية ومصدر لتهديد الروم ومحاولة

السيطرة على عاصمتهم القسطنطينية ، وتأتي أهمية البحث أيضاً رفع الروح المعنوية للمسلمين وقد هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على جانب مهم من جوانب البحرية الإسلامية، ألا وهو الأسطول الذي لعب دوراً مهماً في العمليات الحربية. أما عن تساؤلات الدراسة فتتمثل في السر الذي جعل معاوية بن أبي سفيان مهتماً بتكوين أسطول بحري ومتى بناه وما أول عمل عسكري قام به الأسطول البحري الإسلامي ، و كانت الدراسة في أربع مباحث وخاتمة .

المبحث الأول: الأسطول(*) البحري في فترة ما قبل الدولة الأموية:

لم يكن هناك اهتمام بادئ الأمر بالبحر، وخوض العمليات البحرية، ويرجع العلامة ابن خلدون ذلك إلى عدم دراية العرب بثقافة البحر وركوبه إلى البداوة في حين تفوّق الروم في ذلك لأنهم اعتادوا على ممارسة البحر وأهواله،(ابن خلدون،1992،34) وتذكر (حسيبة عزيزي) أن العرب نسوا كل اتصالاتهم بالبحر وأهملوا شؤونه واقتصروا على الطرق البرية في تجارتهم بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الحبشية والفارسية.(عزيزي،2016،17).

هذا إضافة إلى قلة الأخشاب المساهمة في صناعة السفن وعدم وفرة الحديد- باستثناء اليمن- لصنع المسامير والمراسي والقطران.

وهنا لا أقصد عرب اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، فهؤلاء برعوا في ركوب البحر(*) بحكم موقع بلدانهم على البحر الأحمر غرباً والمحيط الهندي جنوباً وممارسة التجارة براً وبحراً، وهذا قديماً، إلا أنه بعدها توقفت علاقتهم بالبحر لصعوبة الملاحة في البحر الأحمر وذلك لكثرة ما يعترض سفنهم من صخور وشعاب مرجانية.(سالم،1969،15).

أن معرفة العرب للبحر كان منذ زمن نبينا الكريم- صل الله عليه وسلم- أيام هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من ظلم واضطهاد قريش، إلا أن الحملات البحرية لم تكن في ذلك العهد، ولا في عهود كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب(رضي الله عنهما) فالخليفة عمر بن الخطاب كان حريصاً على أرواح المسلمين من خوض تجربة غير مضمونة العواقب، فهو يرى قصر استعداد المسلمين من ناحية الدفاع عن السواحل، وإضافة إلى تفوق وتمكن الروم في هذا الجانب فقد غضب الخليفة عمر من العلاء الحضرمي- والي البحرين- عندما أرسل حملة بحرية سنة 17هـ لغزو فارس من البحرين، وكاد يهلك هو وجيشه لولا تدارك الخليفة عمر للموقف ، حيث كتب إلى عتبة بن غزوان بالبصرة لإنقاذه.(الطبري 1971،489.499) كما أن الخليفة لام عرفجة بن هرثمة الازدي- سيد بجيلة عندما سمع بدخوله البحر، وكان الخليفة عمر قد طلب منه السير إلى عمان فقط.(ابن خلدون،33) وهذه المخاوف لا تأتِ من فراغ لأن الخليفة عمر لما أرسل علقمة بن مجزر المدلجي سنة 20هـ إلى الحبشة تعرضت السفن الإسلامية إلى الغرق في البحر ،(الطبري،517) ونتيجة لذلك اكتفى الخليفة عمر بتحصين السواحل وتجهيزها بالجيوش، وأقام الحرس على الحدود وزودها بالقلاع والأبراج التي كانت أشبه

بالسور،(البلاذري،148،1920) وتم تزويد المدن الواقعة على الساحل بحاميات تنقسم إلى مجموعات تتكون من مئة رجل، ويتواجد هؤلاء المرابطون في فصل الصيف، أما شتاءً فيعتبر فصل انغلاق البحر بسبب العواصف والأنواء، فكانت الحاميات ترجع إلى قواعدها في دمشق ويتركون مجموعات بسيطة تحمي هذه المدن كما كانت النيران توقد فيعرف المرابطون على الحدود أن هناك خطر يحدق بهم فيستعدون للتصدي له.(سالم،17).

كما أن بعض ولاة الخلفاء الراشدين في زمن أبي بكر وعمر كانوا مهتمين بإنشاء الأساطيل أمثال معاوية بن أبي سفيان (والي الشام) حيث أدرك أهمية الأسطول في الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل، حيث تعرض للعديد من الصعوبات أثناء فتح المدن الساحلية مثل قيسارية وطرابلس وعسقلان، ومن هنا اهتم معاوية بالثغور وتحصينها وزودها بالمقاتلة وشجع الانتقال إليها، ومنح الاقطاعات لمن يستغلها ويتمتع بخيراتها فازداد العمران بالسواحل، كما أرسل الأخشاب من لبنان حيث يتوفر خشب البلوط والصنوبر والأرز والعرعر التي تصلح لبناء السفن، وفي مصر كانت توجد أخشاب تصلح لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن وخشب الجميز واللبخ والأثل والدوم لصناعة المجاذيف، واستخدم الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس، واستخدم القطران ونبات الدقس لصناعة الحبال،(عبد اللطيف،2008،76،77) وتوفرت في المناطق الشرقية للدولة الأموية أخشاباً مثل الأبنوس والصندل والساج كانت تجلب من الهند.(الجاحظ،1983،34).

واستعان بخبرة الأقباط في مصر،(سالم،18) وكان معاوية يرمي من وراء استخدام الأساطيل الدفاع عن السواحل وغزو الجزر المقابلة لساحل بلاد الشام والدفاع عن البلاد المفتوحة واستمرار العلاقة التجارية مع بلدان البحر المتوسط.(طقوش،2010،32).

ويذكر (ارشيبالدور) أن ما دفع العرب إلى التحول إلى البحر هو حاجتهم للدفاع عن الأملاك الجديدة التي كسبوها، حقيقة أنهم ملكوا البحر، إلا أنه لا يزال في قبضة البيزنطيين.(ارشيبالدور،89).

ونرد عليه صحيح أن العرب أرادوا الدفاع عن أملاكهم المكتسبة، إلا أن اخفاقهم رغم الاستماتة الكبيرة في تحقيق أهدافهم إلا أن البيزنطيين بالمقابل استخدموا الإمكانات المتطورة من النار الإغريقية التي رجحت الكفة لصالحهم. لذلك فإن الخليفة معاوية أثناء ولايته لبلاد الشام طلب من الخليفة عمر بن الخطاب أن يأذن له بركوب البحر إلا أنه رفض.(البلاذري،1981،306).

ذلك أن الخليفة عمر استشار القائد عمرو بن العاص بما عرضه عليه معاوية من بناء أسطول بحري وخوض غمار الحروب البحرية وطلب منه أن يصف له البحر، فكان جواب عمرو بن العاص موافقاً لرأي الخليفة عمر حيث وصفه بعبارته(إني رأيت خلقاً كبيراً، يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزاد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق)، ولم ينجح معاوية في إقناع الخليفة حتى بعد أن أظهر له أخطار الروم على حدود المسلمين، حيث قال

معاوية: "يا أمير المؤمنين أن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها بنباح كلابهم وصياح دجاجهم، إلا أن الخليفة عمر لما قرأ جواب عمرو بن العاص قال لمعاوية: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، كما قال: تالله لمسلم أحب إليَّ مما حوّت الروم".(الطبري،600).

هذا ولعل اختيار الخليفة عمر القائد عمرو بن العاص للمشورة هو أن الأخير من قادة الدولة الإسلامية وهو والي مصر، ولما لهذه الولاية من شواطئ على نفس البحر المتوسط مثل بلاد الشام، ولأنها كانت معرضة للغارات البحرية من قبل الروم.(العدوي،82).

لا زالت مغامرة ركوب البحر تلوح في مخيلة معاوية بن أبي سفيان، فلما تولى الخليفة عثمان سدة الحكم كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو قبرص ويخبره بقرب الوصول إليها إلا أن الخليفة عثمان أخبره أنه شهد ما رد عليه عمر بن الخطاب حينما طلب منه ركوب البحر، ولم ييأس معاوية بل جدد طلبه حتى وافق الخليفة عثمان، واشترط عليه أن يصطحب معه زوجه، وألا يكره الناس على الغزو،(البلاذري،180،181) ورغم عدم إكراه أحد على ركوب البحر إلا أن عدد المتطوعين كان كبيراً.(عبد العليم،1978،76) ويذكر أن سبب اشتراط الخليفة عليه اصطحاب زوجته هو ليضمن صدق عزيمته في غزو المدينة وليعلم مدى قربها من الشام.(العدوي، 82).

في سنة 28هـ/648م(الطبري، 600) اتجه معاوية إلى غزو قبرص، وكان سبب اختياره لها أهميتها الاستراتيجية وأن يحرم بيزنطة من هذا المكان القريب من أرض المسلمين،(عبد اللطيف،207) وقد تم محاصرة قبرص فاضطر أهلها لطلب الصلح فوافقهم معاوية، حيث كان من شروطه ألا يدافع المسلمون عن جزيرة قبرص إذا هاجمها عدو، وأن يخبروا المسلمون عن تحركات الروم، وأن يدفع أهل قبرص للمسلمين سبعة ألاف ومائتي دينار سنوياً، وألا يساعدوا الروم ولا يُطلعونهم على تحركات المسلمين ، إلا أن أهل قبرص سنة 32هـ غدروا ونقضوا الاتفاقية المبرمة مع المسلمين، حيث أمدوا الروم بالسفن للإغارة على المسلمين، عندئذٍ عزم معاوية على مهاجمتهم ثانية، حيث اتجه إليهم في خمسمائة مركب وقام بالسلب والقتل حتى اضطروا إلى التسليم وطُلب الصلح مرة أخرى، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول، وبعث اثنى عشر ألفاً وبنى لهم مدينة ومسجد ونقل إليها جماعة من بعلبك،(البلاذري،180،181) وقد توالت العمليات البحرية، حيث حاول المسلمون الاستيلاء على جزيرة أرواد إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لاستماته أهلها ورفضهم التسليم، وفي العام الذي يليه تم السيطرة عليها،(العدوي،88) وكان قائد البحرية هو عبدالله بن قيس الحارثي، حيث حقق 50 غزوة بحرية منها السيطرة على صقلية، حيث تحصل على أصنام مكللة بالذهب وقد أرسل بها إلى معاوية فأمر الأخير بإرسالها إلى الهند لتباع هناك فيستفاد من ثمنها.(سالم،18).

وفي عام 33هـ سيطر المسلمون على جزيرة رودس تحت قيادة جنادة بن أبي أمية الأزدي(البلاذري،274) كما تم السيطرة على جزيرة اقريطش (كريت) وذلك لسد كل المنافذ الرئيسية أمام السفن البيزنطية لأن تلك السفن كانت تتسلل عبر هذه المنافذ والفتحات البحرية لمهاجمة الساحل الشامي.(العدوي،91).

في سنة 34هـ حقق المسلمون انتصاراً على الأسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري رغم أن الروم جمعوا أكثر من 500 سفينة،(الوكيل،150) وكان الامبراطور البيزنطي قسطانز الثاني قد هاجم حدود بلاد الشام، وكان الأسطول الأموي بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح– والى مصر– حيث اتجه إلى ساحل ليكيا عند غونيكس باسيا الصغرى،(الطبري،288) وكانت النتيجة انتصاراً ساحقاً للمسلمين، حيث أنهم ربطوا سفنهم ببعضها بواسطة خطاطيف طويلة يصيبون بها سفن وصواري الروم،(ارشيبالدور،92) وسميت بذات الصواري لكثرة صواري السفن.(سالم،29).

وتعتبر هذه المعركة المدخل الذي أطل منه الأمويون على العالم الوسيط كقوة يحسب لها ألف حساب، وأضاعت آخر فرصة للبيزنطيين لاستعادة مواقعهم في بلاد الشام ومصر.(طقوش،30).

وقد تخلى قسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من البلاد،(العدوي،91) وذكر أن معركة ذات الصواري كانت حادثاً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قسطانز كان يرمي إلى تحطيم قوى المسلمين البحرية في مهدها ولو وفق في ذلك لظلت سيادة البحر بيدهم دون المسلمين،(عثمان،338) وبذلك حطمت هذه المعركة أسطورة سيادة الروم على ساحل المتوسط، ولم يعد يذكر اسم بحر الروم بل أصبح يذكر بحر الشام ونقل الروم قيادة القوى البحرية لهم إلى غرب البحر المتوسط، وأصبحت صقلية هي القاعدة الجديدة لأسطولهم بعد فشله في مجابهة الأسطول الإسلامي.(العسلي،1988،198).

ورغم النجاح الذي حققه موقعة ذات الصواري إلا أن المسلمين لم يواصلوا معاركهم البحرية، حيث انشغلوا بمشاكل داخلية بعد موت عثمان بن عفان سنة 35هـ حيث كان الصراع على سدة الحكم بين معاوية وعلي بن أبي طالب.(سالم،19).

المبحث الثاني: اهتمام بعض خلفاء بني أمية بالأسطول البحري:

كان معاوية بن أبي سفيان مهتماً بإنشاء أسطول بحري منذ أن كان والياً على بلاد الشام، وذلك بهدف السيطرة على جزر البحر المتوسط، وليتخذها نقطة أمامية وقاعدة بحرية ومرسى لأسطولهم استعداداً للسيطرة على العاصمة البيزنطية "القسطنطينية"،(بركات،1995،18) فكان من أولوياته إنشاء أسطول قوي، حيث أنه لما تعرض ساحل الشام للهجوم من قبل البيزنطيين كان لزاماً التفكير في الموضوع جدياً، ففي سنة 49هـ أنشأ الخليفة معاوية بن أبي سفيان، دار لصناعة السفن في عكا، حيث عمل على جمع

الصناع، وظلت بعكا إلى أن تم نقلها إلى صور في عهد هشام بن عبدالملك(105-125هـ).(خماش،1987،376) واستطاع بأسطول عكا غزو رودس ثم كريت.(عبد العليم،76).

وقد هدف معاوية من ذلك إيجاد أساطيل دائمة بموانئ الشام وتخفيف العبء على الأسطول المصري، واختار عكا تحديداً لأنه يستطيع الحصول على أخشاب لبنان التي تصلح لعمل المجاذيف،(العدوي،80) وكانت السفن تبنى في الثغور الشامية وعلى أيدي نوتية من الروم المهرة(ابن خلدون،34)، و أمد الصناع بالأجور والعطايا، وعمل على تقوية الثغور، وقد شحنها بالسفن المقاتلة(ابن خلدون،34) ووفر للعمال وحدات سكنية ووحدات لتموين السفن بالسرعة والدقة المطلوبة.

كما استعان الخليفة معاوية بعرب اليمن من الغساسنة الأزديين، ومن قضاعة لخبرتهم البحرية الكبيرة وعملهم في نقل التجارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي،(عزيزي،13،12) واستفاد معاوية من بعض العناصر التي تملك المعرفة في بناء السفن مثل الفرس، حيث نقلهم إلى مدن طرابلس وصيدا وجبيل وصور على الساحل الشامي،(اليعقوبي،1891،327) وفي ذلك يقول ياقوت الحموي عند حديثه عن سبذان "كان سكانها قوماً من الفرس يعملون في البحر فلما قرب العرب منهم نقلوا ما خف من متاعهم مع أهلهم على أربعمائة سفينة".(سيذان،207).

وفي سنة 54هـ أنشأ معاوية أول دار لصناعة السفن الحربية في مصر في عهد والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، وعرفت بصناعة الروضة،(عيادة،22) وتعرف أيضاً باسم صناعة الجزيرة، وبلغت السفن ألف وسبعمائة سفينة(كردعلي،43،2012) وأصبحت دور صناعة السفن مناطق جذب للسكان، حيث أُنشأت الفنادق وتطورت صناعة دور السفن وأصبحت دقيقة التنظيم وابتكرت وظيفة المشرف العام على دور الصناعة ويسمى متولي الصناعة.(عزيزي،13).

امتازت السفن الإسلامية بضخامة حجمها وتنوعها وإمكانات استيعابها وحملها كميات كبيرة من المواد والعتاد وأعداد من الجند،(شاكر،1991،104) فاشتهرت السفن المقيرة التي طليت بالقار (القطران)، والمسمرة بالمسامير المدهونة بالدهن، وفي هذا المجال يذكر بن رسته بأن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق "أجرى في البحر السفن المقيرة المسمرة غير المخروزة المدهونة والمسطحة".(ابن ستة،1891،196،195).

أن السفن الإسلامية كان العرب يبنونها على أمثلة سفن الصين واليونان والرومان لأنهم أخذوا هذه الصناعة منهم، حيث كانت السفن تتحرك بالمجاذيف والشراعات وأهمها الشواني، وهي مراكب يقيمون بها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم.(ابن خلدون،34).

وشكل السفن تشبه بعض الحيوانات البحرية كالحوت لأن له قدرة فائقة في السباحة وقدرته من خلال شكله على مصادمة الماء، وقد استخدم حبال النارجيل في بناء السفن في الخليج العربي والمحيط الهندي، حيث يتم ربطها بألواح السفن(الشملان،30، 32).

وقد اتخذت الأشرعة في السفن واستخدم الأسطول الأموي الشراع بشكله المربع والمثلث وذلك ليهتدي إليه الملاحين العرب،(فهمي،128) وهناك أشكال للسفن أشارت إليها بعض المصادر، فيذكر اليعقوبي (السفن والمراكب العظام)(معجم البلدان،338) وذكرها ياقوت الحموي في معرض قصته عن رودس (المراكب البحرية)(ياقوت، 90) ويسميها ابن رستة (سفن البحر).(ابن ستة،95).

والسفن أنواع كثيرة ففي عهد الحجاج بن يوسف الثقفي استخدم المسلمون البارجة في فتوحاتهم لبلاد السند وهي السفن التي يستخدمها لصوص السفن(القراصنة) الذين يقومون بالإغارة على المسلمين(البلاذري،612) ،وعرفوا القرقور وهي من السفن التي استخدمت في العصرين الراشدي والأموي، والطيارة وهي نوع من السفن السريعة وتاريخ استخدامها في عهد عمر بن عبدالعزيز (99-101هـ)وغيرها(فهمي،378،375) .

أما فيما يتعلق بألقاب من يتولى قيادة السفن فنجدها كثيرة وقد وردت في المصادر، فمثلاً لقب صاحب البحر،(ابن ثغرى،1992،284) أو (عامل السفن)(النويري،2000،262) أو (ولاية البحر)(الكندي،2003،61،32) أو غزو البحر(النويري،169،166).

والجدير بالذكر أن العرب في صدر الإسلام لم يكونوا مهرة في صناعة السفن ولا تسييرها لذلك تم الاستعانة بالروم واليونان وغيرهم،(الحموي،29) ومع استقرار الحكم واتساع ممتلكات الدولة العربية الإسلامية برعوا في صناعة السفن البحرية،(عيادة،21) ففي سنة 42هـ عمل الخليفة معاوية على إصلاح الحصون في كل من صور وعكا ونقل جماعات كبيرة من أهل بعلبك وحمص وانطاكية، كما اهتم بكل المدن الساحلية ومنح الجند أراض انطرسوس ومرقية وبلينياس، واهتم برباط عسقلان والجند المكلفين بحمايتها،(البلاذري،173) كما حصن طرابلس حيث كان يبعث بالجند في كل عام ونصب عليهم عاملاً فإذا قدم الشتاء يبقى هذا العامل مع نفر قليل من الجند، استمر الوضع حتى عهد عبدالملك بن مروان(الحموي،29) ونقل جماعة من زط البصرة والسيابجة إلى السواحل،(ابن النديم(91) وصارت عادة نقل الأهالي وإعطاء الاقطاعات سنة متبعة عند خلفاء بني أمية، فعبد الملك بن مروان أسكن عرب عسقلان واقطع الجند القطائع واستمال محمد بن مروان (أخ الخليفة) الصقالبة فانحاز 20 ألف منهم إلى العرب فأسكنهم الخليفة في ثغور بالشام وقبرص، كما أن الوليد بن عبد الملك125- 126هـ) جند انطاكية وأرض سلوقية(البلاذري،174) ، ونقل قوماً من زط السند إلى انطاكية،(البلاذري،174) ونقل مروان بن محمد جماعات من الصقالبة إلى الثغور(عثمان،364).

إن انتهاج الخلفاء الأمويون هذا المنهج في ابدال السواحل الشامية بسكان العرب أو الموالين للعرب هي أنهم لا يثقون في المغلوبين من أهل البلاد المفتوحة،(تاريخ البحرية الليبية،15،2020) وقد سار الخليفة عبدالملك بن مروان على نهج سلفه معاوية، حيث أنشأ قاعدة بحرية بقرطاجنة حيث أحضر ألف عامل مصري من مهرة صناعة السفن لحماية الجيش الإسلامي من ناحية البر من أخطار الروم، كما كانت قاعدة لتحقيق

الانتصار في الأندلس ومنه إلى جنوبي فرنسا، وقد طلب الخليفة عبدالملك بن مروان من عامله على أفريقيا حسان بن النعمان إنشاء آلات بحرية في دار الصناعة بتونس(ابن خلدون،34)، فوقع اختيار حسان على ترشيش وأراد أن يستعين بنفر من أهل مصر في إنشاء الميناء فأرسل إلى عبدالملك يطلب منه نفراً ممن لهم خبرة في مجال بناء السفن، فكتب عبدالملك إلى أخيه عبدالعزيز – والي مصر – أن يوجه إلى تونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر، وكتب إلى حسان أن يبني لهم دار صناعة(قطب،2006،45).وبذلك أصبح هناك أسطولاً بحرياً ثالثاً، إضافة إلى الأسطولين في مصر وبلاد الشام،(ارشيبالدور،101)ويفهم مما ذكره البلاذري عن دور صناعة السفن كان موجوداً بمصر فقط (كما كانت سنة 49هـ خرجت الروم إلى السواحل، وكانت الصناعة السفن بمصر فقط)، (ارشيبالدور،137) وانتشرت دور الصناعة في العدد من المدن على طول ساحل البحر المتوسط فوجدت في مصر دار للصناعة هي دار صناعة القلزم على البحر الأحمر لأنه يشكل حلقة الاتصال بين البحر الأبيض والبحار الشرقية رغم صعوبة التنقل والملاحة فيه.(فهمي،1981،31).

حرص الخلفاء الأمويين على بناء دور في الشام حيث هناك تعاون كبير بين الأسطولين في مصر وبلاد الشام، حيث يتم الاستعانة بالأقباط كملاحين في السفن الشامية ويتم جلب الخشب من مصر، حيث اثبت مهارة المصريين في صناعة السفن ومهارة ملاحيهم، وكان القبط يُرسلون للعمل في الأساطيل التي تتخذ قواعدها في الشام،(خماش،376) فخاض المسلمون حروب بحرية وكان هدفهم المحافظة على أملاكهم الجديدة التي تحصلوا عليها فاستطاعوا تحقيق نجاحات في البر، فلذلك أدركوا حقيقة أهمية البحر في تثبيت ملكهم،(ارشيبالدور،89،61) وكان الخليفة معاوية بعيد النظر عندما أدرك أهداف الروم وأطماعهم في العالم الإسلامي، لهذا اهتم ببناء أسطول يستطيع به أن يواجه أخطارهم ، وخاصة أن خطر الروم لا يزال مستمراً، فلذلك جاء الاهتمام بالعاصمة القسطنطينية لأنها قريبة من عاصمة الأمويين ،(عبد اللطيف،113) وكان لابد من اختيار أوقات مناسبة للإغارة على بلاد الروم حيث أنهم يقومون بخوض الحروب البحرية في فصلي الربيع والصيف ويسمى ذلك بالصوائف والآخر بالشواتي ويؤكد ذلك البلاذري: "كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي الشام والجزيرة وتقيم للراكب الغزو وترتب الحفظة في السواحل".(عبد اللطيف،191) فكان الغزو البحري في فصل الربيع ويبدأ من منتصف الصيف، أي أن المسلمين كانت غزواتهم قليلة في فصل الشتاء،(العدوي،108) وذلك للجو البارد الذي تميزت به بلاد الروم، كما كان لزاماً أن تزود المراكب والأرزاق وقد جارت المراكب الأموية نظيرتها البيزنطية بل ونافستها وأوقعت الفزع في قلوبهم بما افتتحته من ثغور وما تحصلت عليه من جزر في عهد معاوية بن أبي سفيان، وقد سار على نهجه خلفائه فأكثروا من بناء الأساطيل الحربية،(الحموي،119) فكان لزاماً من ذلك للدفاع عن الساحل الإسلامي والسيطرة على الجزر البحرية كأرواد وقبرص ورودس

والدفاع عن البلدان المفتوحة والأملاك التي اكتسبوها، وأيضاً استمرار ممارسة التجارة الخارجية مع مدن البحر المتوسط.(طقوش،31).

المبحث الثالث: النشاط البحري في عهد خلفاء بني أمية:

في سنة 45هـ أغار عبدالرحمن بن خالد بن الوليد على آسيا الصغرى، حيث أسر وخرب الحصون البيزنطية وأعاد الكرة سنة 47هـ حيث قضى فصل الشتاء في آسيا الصغرى،(الطبري،201) وفي نفس السنة غزا بسر بن أبي أرطأة البحر شتاءً، وكانت شاتية مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم وصائفة عبدالله بن قيس،(الطبري202،205) كما هاجم معاوية بن حديج في نفس السنة جزيرة صقلية(أبو الفرج،351) وغزا رويفع بن ثابت الانصاري سنة 47هـ جزيرة جربة(سالم،23،26)، وفي سنة 48هـ كانت حملة عقبة بن عامر الجهني بأرض مصر بحراً.(الطبري،205) وتسمى بما في ذلك الصوائف، حيث غنم غنائم كثيرة.(عثمان،51).

وفي السنوات47 ، 48،49هـ أُرسلت سرايا للإغارة على بلاد الروم بقيادة مالك بن هبيرة السكوني، حيث مكث شتاءً في بلاد الروم وغزا يزيد بن شجرة الرهاوي بالشام وعقبة بن نافع بمصر سنة 49هـ،(الطبري،106) وفي العام نفسه بدأ الحصار على القسطنطينية حيث توغل المسلمون في أرض بيزنطة مستغلين فرصة المشاكل والاضطرابات الداخلية التي تعاني منها بيزنطة، حيث تمرد اثنان من القادة على الإمبراطور قسطانز الثاني،(العدوي،155) وقد تقدم الأسطول الإسلامي بقيادة فضالة بن عبيد الانصاري إلى أن وصل خلقيدونية- من ضواحي القسطنطينية- إلى أن وصلوا إلى العاصمة،(عبد اللطيف،113) وتمت محاصرتها أربع سنوات، ورغم كل الجهود التي بذلت للسيطرة عليها إلا أنها باءت بالفشل، حيث واجهت المسلمين عدة مصاعب منها البرد القارص الذي يغلب على الجو البيزنطي شتاءً وانتشار مرض الجدري، حيث انتشر بين أفراد الجيش الإسلامي فطلب فضالة بن عبيد الليثي المدد فأرسل الخليفة معاوية مدداً وانضم إلى الجيش، حيث تم محاصرة العاصمة البيزنطية مدة ستة أشهر، وكان المدد بقيادة سفيان بن عوف وأمّر عليهم يزيد بن معاوية، وكان معه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وبسر بن أبي أرطاة وغيرهم.(الطبري،148).

وقد هدف معاوية من وراء ارسال ابنه يزيد هو الإعلاء من شأنه في ميدان الجهاد وليرد على من يشك في قدراته، أما عن إرساله لكبار الصحابة فالغرض منه تقوية الروح المعنوية وبث الثقة في نفوسهم والتفاؤل الطيب،(العدوي،156) إلا أن الظروف القاسية السابقة الذكر التي ألمت بالجيش الإسلامي من قساوة الجو ونقص المؤن وانتشار الأمراض واستخدام النار الإغريقية[*] ساهمت في انسحاب الجيش الإسلامي(ابن الأثير،480).

أما عن سر اهتمام الخليفة معاوية بالعاصمة هو قرب بيزنطة من العاصمة دمشق، وهذا يشكل خطر على الدولة الأموية ، ولأنه مدركاً منذ أن كان والياً على بلاد الشام لمكايد الروم ودسائسهم ، لذلك فكر في انشاء أسطول ليستخدمه في فتح القسطنطينية لطول الطريق البري الموصل إليها وليتحصل على مراكز دفاع وهجوم في عرض البحر المتوسط للدفاع عن حدود الدولة الإسلامية ومنع الوصول إليها.(عزيزي،11).

ويذكر الطبري أنه تم في سنة 53هـ فتح رودس على يد جنادة بن أبي أمية الازدي، وفي سنة 54هـ فتحت أرواد على يد جنادة أيضاً.(عزيزي،252،238)

تم محاصرة القسطنطينية مرة ثانية من 54-60هـ/ 674-680م، وقد تخلل الحصار مناوشات بين الطرفين واستمر الحصار سبع سنوات.(الطبري،241) حيث طوقت العاصمة البيزنطية براً وبحراً وكانوا ينسحبون شتاءً إلى جزيرة كيزيكوس ثم يعاودون الحصار صيفاً، وقد تم دعم الجند بأسطول آخر بقيادة جنادة بن أبي أمية، فبعد فتح قبرص ثم رودس وأرواد اتخذت الأخيرة قاعدة للانطلاق تمهيداً للوصول إلى العاصمة البيزنطية، وقد جرت العمليات البحرية في فصلي الربيع والصيف(البلاذري،278) أي من أبريل إلى سبتمبر، إلا أن الجيش الإسلامي واجهته العديد من المصاعب، حيث فقد الكثير من الجند يقدر عددهم بـ30 ألف مقاتل منهم الصحابي أبو أيوب الأنصاري،(عثمان،38،36) وقد دفن تحت أسوار القسطنطينية، وحين دفن قال الروم: لقد مات منكم عظيم فقال يزيد: "قولوا: هذا من أصحاب محمد- صل الله عليه وسلم- من أقدمهم إسلاماً وقد قبرناه حيث رأيتم، الله لئن نُبش لا يُضرب ناقوس بأرض العرب ما كانت مملكة، فكانوا إذا امحلوا كشفوا عن قبره فسُقُوا".(القلقشندي،113)، ولذلك فأن الخليفة معاوية آثر انسحاب الجيش لإحساسه بدنو أجله، حيث حدثت مشاكل داخلية بعد وفاته، ولذلك عاد الجيش المرابط إلى دمشق، كما أن القوات البيزنطية انهكت قواها واتعبها الحصار الطويل، فتوصل الطرفان إلى عقد اتفاق مفاده أن تدفع الدولة الأموية جزية كل عام لبيزنطة مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، إضافة إلى خمسين أسيراً وخمسين حصاناً، واستمر هذا الاتفاق مدة ثلاثين عاماً.

وبهذا لم يتمكن الجيش الإسلامي المرابط من تحقيق هدفه فحالت كل من مناعة أسوار القسطنطينية ونفاذ المؤنة عند المسلمين دون ذلك فضلاً عن بُعد طرق الإمداد وسوء الأحوال الجوية واستخدام بيزنطة للنار الإغريقية كذلك الحال بريأ ذلك أن الطرق البحرية وطريق البحر الأسود كان مفتوحاً أمام بيزنطة للإمدادات والمؤن.(طقوش،35،31).

ورغم أن الحملة لم تحقق هدفها إلا أنها جعلت بيزنطة في حالة دفاع مستمر وأجبرتهم على توزيع جنودهم على عدة جبهات فلا يستطيعون الهجوم على المسلمين.(العسلي،211).

كما أدركت أنه من الضروري إحداث تغييرات على نظمها العسكرية والإدارية،(طقوش،33،) حيث اتخذوا كافة الوسائل التي تجعل عاصمتهم بعيدة المنال عن المسلمين واتخاذ كافة الوسائل المنافسة للنهوض

بمرافق البلاد للدفاع عن عاصمتهم وسد الطرق الرئيسية المؤدية إلى القسطنطينية، حيث وزعت وحدات من الجيش على جهات أسيا الصغرى تعسكر بصورة دائمة ومنحوا المقيمين هناك من الجند قطعاً من الأرض يستغلونها ويدافعون عنها،(العدوي،47) كما أن الفتوحات الإسلامية لم تكن عمليات عسكرية لاستغلال الشعوب وإنما فتحاً دينياً ولغوياً وثقافياً، وفي سنة 70هـ أبرم الخليفة عبدالملك بن مروان معاهدة مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان قبل أن يدفع له مالاً، وذلك ليضمن عدم الإغارة على حدود بلاد الشام منتهز فرصة اشتغاله في الداخل،(البلاذري،188) حيث جاء فيها أن يتحصل الطرفان على خراج أرمينيا وقبرص وأيبيريا، وأن ينسحب(المردة) من شمال الشام إلى ما وراء جبال طوروس، وتستمر الاتفاقية عشر سنوات،(طقوش،92) فكان الخليفة عبدالملك يعطي للمردة ألف دينار كل جمعة كما أعطى لجستنيان مالاً يؤديه إليه،(الطبري،516) وأراد جستنيان أن يخدع الخليفة الأموي دون أن ينقض الاتفاقية المبرمة معه بإثارة جماعة المردة أو الجراجمة المقيمين في جبال اللكام للإغارة على الحدود الإسلامية،(البلاذري،189،190) فدخل الخليفة في مفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي حيث ضمن أبعاد هؤلاء المردة عن الثغور الإسلامية، وقد نجح في ذلك حيث أُبعد اثنى عشر إلى رومانيا وبعضهم إلى تراقيا وإلى أسيا الصغرى(عبد اللطيف،140) ولتفادي الهجمات البيزنطية أعاد الخليفة الأموي تحصين عكا وصور وطرابلس وعسقلان وقيصرية وشحنت بالجند والمقاتلة وزيدت الحاميات وأعاد تنظيمها وخاصة في أنطاكية وطرابلس.(فتحي،361).

في سنة 71هـ فتح عبدالملك بن مروان قيسارية، وبين عامي 73-76هـ غزا الطوائف أخاه محمد بن مروان(والى جزيرة وأرمينية)(الطبري،542،526) وفي 74هـ هزمهم عثمان بن الوليد ومعه أربعة آلاف جندي، أما جيش الروم فكان في 60 ألف.(محمود،20).

أعلن الإمبراطور البيزنطي الحرب على الدولة الأموية على خليفة قيام عبدالملك بن مروان بضرب أول دينار ذهبي عربي، وأزال الشعارات المسيحية وأحل محلها نصاً عربياً، وهي محاولة لإزعاج بيزنطة كما أنه قام بمنع تصدير البردي إليها، إلا أن الإمبراطور البيزنطي هُزم على حدود أسيا الصغرى،(ارشيبالدور،23) وقد تتابعت الغزوات البحرية الأموية، ففي سنة 77هـ غزا الوليد بن عبدالملك ملطية صيفاً وظل يقود العمليات البحرية حتى وفاة عبدالملك بن مروان.

وقد جرت أحداثاً أثرت تأثيراً سلبياً على حركة الفتوحات حيث أنه في سنة 78هـ انتشر مرض الطاعون في بلاد الشام وفي 81هـ تمرد عبدالرحمن الاشعث وقام بثورة استمرت أربع سنوات انهكت كاهل الدولة الأموية.

بعدها تتابعت العمليات البحرية ففي سنة 81هـ فتح عبدالله بن عبدالملك قاليقلا،(محمد،93) وفي 83هـ غزا عبدالله بن عبدالملك طرندة،(الطبري،620) وفي 84هـ قام الأخير أيضاً بغزو انطاكية وحصن المصيصة ونقل إليها ثلاثمائة رجل، وأكمل بناؤها سنة 85هـ واتجه إلى قاليقلا(*) عند منابع نهر الفرات،(البلاذري،188) وغزا في سنة 86هـ مسلمة بن عبدالملك الطوانة(البلاذري،188) وعطاء بن رافع

جزيرة صقلية،(محمود،203) كما توالت العمليات البحرية على يد ولاة بني أمية في أفريقيا، حيث غزا عبدالله بن موسى بن نصير صقلية، وفتح عبدالملك بن قطين بأمر من عبدالملك بن مروان قوصرة– تقع بين صقلية وساحل أفريقيا– وأرسل موسى بن نصير وعياش بن أخيل إلى صقلية وعبدالله بن قرة إلى سردانية وغزا في 89هـ محمد بن أوس الأنصاري صقلية، واتجه في نفس العام عبدالله بن موسى بن نصير إلى جزيرة ميورقة.(سالم،35،36).

كما فتح العديد من الحصون في عهد الوليد بن عبدالملك مثل طوانة سنة 87–88هـ (الطبري،676)، وهي مفتاح الطريق العام بين الشام والبسفور الذي يسلكه الجيش الإسلامي للهجوم على العاصمة القسطنطينية،(الطبري،434) وقد حوصرت طوانة تسعة أشهر وخسر الروم خمسون ألفاً من جنودهم هذا عدا الأسرى والغنائم،(ابن الأثير،246) وفتح مسلمة حصن قسطنطينة وغزالة والاخرم(الطبري،677) وهرثومة وعمورية وقمودية، واستمر حصار قمودية عامين وذلك بسبب حصانة المدينة والاستماتة في الدفاع عنها، وتم السيطرة عليها في سنة 707هـ.(الطبري،679).

تعتبر الحصون السالفة الذكر مهمة بالنسبة للأسطول الأموي، لأن الاستيلاء على هذه المعاقل هو الاستحواذ على الطريق الرئيس المؤدي إلى العاصمة القسطنطينية، وقد جرا تحصين قواعد أخرى مثل مرعش ونقل الخليفة الوليد الزط إلى أنطاكية والمصيصة وأمن الطريق الحربي بينهما خشية من الحيوانات المفترسة ، ثم منح اقطاعات في سلوقية بقصد إعماره ومنح الأراضي للمزارعين(البلاذري،155) ونقل الأرمن إلى ملطية الذين اخرجتهم بيزنطة من ديارهم على خلفية المذهب الديني.(البلاذري،172،175)كما بنى هشام بن عبدالملك في عهد أخيه الخليفة الوليد حصن قطر(البلاذري،196) وهو بين انطاكية والمثقب(ابن النديم،227) وأنشأ حصن مورة(البلاذري،196) في جبل اللكام.(ابن النديم،228)

وفي إطار الاهتمام بالثغور وضبط الأمور بها أراد الجراجمة في سنة 89هـ إثارة القلاقل فأرسل الخليفة الوليد بن عبدالملك مسلمة بن عبدالملك إلى منطقة الثغور، حيث نجح في ضبط الأمور واشترط على الجراجمة دفع ثمانية دنانير على كل فرد وألا يلبسوا لباس المسلمين، وإلا يؤخذ منهم الجزية، ويؤخذ من تجارتهم وأموال أغنيائهم.

توالت العمليات البحرية ونشطت الصوائف على يد عبدالعزيز بن الوليد وفتح عمر بن الوليد حصون ثلاث في أرض الروم،(الطبري،11).

ومن الملاحظ من تتبعنا للغزوات البحرية الأموية أن كل قادة هذه العمليات من الأسرة الحاكمة فمعظم المعارك في عهد الوليد كانت على يد أبنائه العباس وعبدالعزيز وعمر ومروان ويساعدهم عمهم مسلمة بن عبدالملك.(محمود،221).

وبرأيي أن الدولة الأموية تعتبر دولة فتية ومسألة الاعتماد على الغير صعبة للغاية، لذلك جرى الاعتماد على أبناء البيت الأموي لعدم ثقتهم في غيرهم.

تواصلت حركة الغزوات البحرية، ففي 91هـ غزا العباس بن الوليد أرض الروم وفتح سمسطية، وفي 93هـ فتح عبدالعزيز بن الوليد مع مسلمة بن عبدالملك خنجرة(*) وماسة وحصن الحديد وغزالة وبرجمة من ناحية ملطية،(الطبري11،12) وفتح العباس بن الوليد انطاكية ووصل عبدالعزيز بن الوليد إلى غزالة.(الطبري،21).

وتم الإغارة في عامي 92-93هـ على مدن آسيا الصغرى، حيث وصلوا إلى البسفور، وأرسل الإمبراطور البيزنطي انسطاس الثاني سفارة إلى بلاد الشام تقترح هدنة على الخليفة الوليد، وكان هدفها الحقيقي هو استطلاع المعلومات عن كثب، فشاهدوا اهتمام الخليفة الأموي بالجيش وأعداده استعداداً للسيطرة على القسطنطينية، ومن هنا أخذ الإمبراطور يقوم بالاستعداد لمواجهة الجيش الإسلامي، حيث تم تخزين المؤن من القمح ومن الحاجات التي يحتاجها المدافعون عن المدينة، فضلاً على ذلك أمر بإعادة تجديد أسوار العاصمة ونصب آلات حربية على الأسوار.(العدوي،182،184).

وقد سار الخليفة سليمان بن عبدالملك (96 – 99هـ)على خُطى أخيه الوليد في إصراره على فتح القسطنطينية، فيذكر الطبري أن سليمان (أعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى أرض الروم القسطنطينية)، أي أن الخليفة كرس وقته وجهده في سبيل تحقيق هدفه، حيث اتخذ من دابق شمال سوريا مركزاً لإقامته ليشرف بنفسه على سير العمليات الحربية،(الطبري،48). ففي سنة 98هـ وجه الخليفة سليمان أخاه مسلمة إلى فتح القسطنطينية، حيث أقام بها فصلي الشتاء والصيف،(الطبري،530). فابتدأ القائد مسلمة سنة 97هـ بفتح بعض الحصون كحصن عوف وسيطر داوود بن سليمان بن عبدالملك على حصن المرأة وغزا عمر بن هبيرة أرض الروم.

خرجت الحملة البحرية بقيادة مسلمة حيث سلك طريق مرعش،(الطبري،44،56). وكان قد جهز سابقاً المؤن والأخشاب لإقامة بيوت تحمي المسلمين من برد الشتاء وبلغت قواته 180 ألف جندي، 1800 قطعة حربية،(الطبري،48). منها سفن حربية وسفن لنقل المؤن، حيث أنها أصغر حجماً وتتألف من 100 مسلح تسليح قوي.(خماش،377).

وفي طريق مرعش دارت العمليات الحربية وحوصرت عمورية وعندئذ طلب الروم الصلح وأُتفق على رفع الحصار عن عمورية ورافق الإمبراطور البيزنطي ليو الجيش الإسلامي للوصول إلى القسطنطينية وتظاهر بالانضمام للمسلمين وهو يريد من وراء ذلك الوصول إلى سدة الحكم ومواجهة المسلمين فيما بعد،(ابن الأثير،304) وطلب منهم ادخال مقدار من الطعام ما يكفي لهم والباقي يصدقونه، وأنهم في أمان من السيء والخروج من بلادهم وهي خدعة منه.

ويبدو أن مسلمة بن عبدالملك قد انطلت عليه فيذكر الطبري "وخدعه خديعة لو كان امرأة لعيب بها فلقي الجند ما لم يلق جيش حتى أن الرجل ليخاف أن يخرج من المعسكر وحده، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب".(ابن الأثير،48،49).

ذلك أن ليو راسل مسلمة وسهل له طرق الدخول إلى القسطنطينية مقابل عدم تخريب أو إتلاف الجيش الإسلامي لأي شيء في طريقهم وزودهم بخطة تمكنهم من السيطرة على العاصمة.(ابن الأثير،304).

عبر المسلمون ثغر الأناضول وأصبح الطريق سهلاً لهم حتى البسفور ولكن لما وصل ليو الايسوري للحكم تنكر للاتفاقية المبرمة مع المسلمين.(الطبري،531). فحاصر المسلمون القسطنطينية براً وبحراً واستمر مائة يوم، حيث سُدت المنافذ المائية حتى تمنع وصول المؤن والامداد للعدو، واحتلوا مدخل البسفور الجنوبي لقطع الاتصال وإرسال جزءاً من الأسطول ليسيطر على مدخل البسفور الشمالي لمنع وصول القمح الذي تتزود به من القسطنطينية،(عبد اللطيف،226) وقد كان الجو قاسياً حيث حدثت عاصفة قوية حطمت معظم سفن المسلمين،(سالم،35) وقد وصلت الامدادات من الأساطيل الإسلامية حيث وصل أسطول من مصر يتكون من 400 سفينة وآخر من أفريقيا يتألف من 360 سفينة، كما أن النار الإغريقية دمرتها كلياً،(خماس،378) كما زاد الأمر سوءاً نقص الامدادات والمؤن عن المسلمين في حين كانت إمدادات بيزنطة متوفرة وذلك بالاتصال بسواحل البحر الأسود، وكانت مدة الحصار سنة كاملة عانى فيها المسلمون الكثير، وساءت الأحوال أكثر بمهاجمة البلغار الجيش الإسلامي بقيادة عمر بن هبيرة ومحاولة طرده وانحاز البحارة المسيحيين الذين يعملون في الأسطول الإسلامي إلى البيزنطيين، وأمام هذه الظروف القاسية انسحب الجيش الإسلامي سنة 99هـ،(ارشيبالدور،104) وأثناء الحصار توفي الخليفة سليمان وتولى عمر بن عبدالعزيز وأمر مسلمة بن عبدالملك بالرجوع بالجيش الإسلامي فرجع.(الطبري،61).

وبالرغم من أن الجيش الإسلامي لم يحقق هدفه في الانتصار إلا أنه جعل البيزنطيون دائماً في حالة دفاع عن مدينتهم وجعلت أمر السيطرة على القسطنطينية أملاً إسلامياً تحقق في عهد محمد الفاتح 1453 فيما بعد.(عبد اللطيف،230).

رأى الخليفة عمر بن عبدالعزيز أنه لا جدوى من مواصلة الحصار، وأمر القائد مسلمة بن عبدالملك بالرجوع بالجيش فرجع.(الطبري،61).

في سنة 100هـ هدم الروم مدينة اللاذقية وخربوا ميناءها وسبوا أهلها، فأمر الخليفة عمر بإعادة بنائها وتحصينها. فالخليفة عمر كانت تهمه حماية المدن التي تقع على مداخل ديار المسلمين أكثر من المدن على الحدود ، وبالتالي الاهتمام الأكبر هو حماية أرواح المسلمين، فمثلاً أخلى طرندة وحصن ملطية لأنهما يقعان على مقربة من أرض المسلمين، فلا يهمه تهديد العدو للحدود بقدر ما تهمه المناطق التي تقع على مداخل الحدود وتدخل في ديار المسلمين، وأراد الخليفة عمر هدم حصن المصيصة إلا أنه عدل عن قراره ، لأنه أُقنع بأنها تشكل السد الحصين ضد هجمات الروم وبنى بها مسجداً وصهريجاً.(البلاذري،229).

ومع أن الحملات البحرية كانت شبه متوقفة في عهد عمر بن عبدالعزيز إلا أنه في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك (101 – 105 هـ) أُرسلت الحملات بين الحين والآخر إلى منطقة الحدود مع بيزنطة في جهة

أسيا الصغرى، إلا أن الوضع عامة لم يكن كسابقه، حيث ضعفت نوعاً ما مرحلة الغزوات البحرية الأموية،(ابن الأثير، 315) وفي عام 103هـ غزا العباس بن الوليد بلاد الروم،(محمود،261) كما أنه كان لولاة المغرب النصيب في إرسال الحملات، ففي عام 102هـ تم غزو صقلية وفي عام 103-106هـ افتتحوا جزيرة سردانية.(سالم،261) وفي 105هـ فتح مسلمة بن عبدالملك قيسارية، وفي 109هـ تمكن معاوية بن هشام من فتح حصن طيبة،(الطبري،124،122) وسيطر على خنجرة وقيصرية،(ابن الأثير، 199،201،219) وأعاد سليمان بن هشام سنة 114هـ غزو قيسارية،(ابن الأثير، 407) وكعادة إرسال خلفاء بني أمية أتباعهم لخوض غمار الحروب البحرية نرى أن الخليفة هشام دأب على ذلك فكانت قيادة جيوشه على يد أبناؤه وإخوته وأبناء عمومته أمثال معاوية وسليمان وأخاه مسلمة وابن عمه مروان بن محمد، فقد كان الخليفة هشام بن عبدالملك يشجع على الغزو ويعطي العطاء لمن غزا بلاد الروم.(فتحي،371).

واكتفى الخلفاء المتأخرين لبني أمية بإنشاء القلاع، حيث حصنت المصيصة وأُحيطت حدودها بالقلاع وقام الوليد الثاني بتحصين الطريق الرابط بين أنطاكية والمصيصة وبني قطرة على بعد تسعة أميال من المصيصة وأعاد بناء زبطرة،(ابن الأثير،474) وفي عهده غزا أخاه الغمر بن يزيد بن عبدالملك قبرص،(البلاذري،197) وقام الوليد بن يزيد أيضاً ببناء الجسر الذي على طريق أذنة من المصيصة وعلى بعد أميال من المصيصة ويسمى بجسر الوليد، وقام الخليفة مروان بن محمد بتحصين الطريق بين أنطاكية وسميساط وبُنيت في عهد الخلفاء المتأخرين أربعة عشر مدينة محصنة.

مما سبق رأينا أن الجيش الأموي قد حقق نجاحات كبيرة رغم الإمكانات البسيطة إلا أنه فشل في فتح القسطنطينية رغم المحاولات المتكررة.

الخاتمة :

من أهم النتائج التي توصل إليها البحث هي أن الأسطول البحري الأموي تأسس على يد معاوية بن أبي سفيان – والي الشام– في عهد الخليفة عثمان بن عفان حيث أدرك هذا الخليفة أهمية الأساطيل في الدفاع عن الحدود الإسلامية ، فخاض العرب معارك بحرية حققوا فيها بعض الانتصارات ، وأن جانب بعض الاخفاقات. وساعدت عدة عوامل على تأسيس الأسطول ، ولعل من أبرزها ازدياد الخطر البيزنطي ، إضافة إلى ذلك توفر المواد الأولية المتمثلة في الأخشاب الصالحة لعمل الصواري والحديد لعمل المسامير والمراسي ونباتات لصناعة الحبال فضلاً عن الأيدي العاملة المهرة ، والأهم من ذلك كله ارتباط مصر والشام وتضامنهما في العمليات الحربية ضد البيزنطيين حيث مصر الجيش الأموي بخبرات ملاحيها ، ومن أثر التعاون انشاء بحرية إسلامية مشتركة حولت خطط العرب من استراتيجية دفاعية إلى هجومية . وقد ساهمت المعارك البحرية في ظهور قدرة المسلمين على تهديد الروم ،وأصبح للمسلمين التجربة والممارسة في خوض المعارك البحرية ، وإن مشروع فتح القسطنطينية ظل يراود القادة المسلمين حتى فتحت على يد محمد الفاتح بعد سبعة قرون من الحصار الثالث لعاصمة الروم .

المصادر والمراجع:

1. ارشيبالد. ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

2. ابن ثغري بردي جمال الدين، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج1.

3. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: أ.م كانزمير، طبعة باريس، مكتبة لبنان، بيروت، 1992، ج2.

4. ابن خلدون عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ أو الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطات الأكبر، ضبط المتن خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، 2000م.

5. ابن رستة أبو علي أحمد، الأعلاق النفيسة، مطبعة برديل ليدن، 1891م.

6. ابن العديم كمال الدين، بغية الطلب ف تاريخ حلب، حققه: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت– لبنان.

7. البلاذري، أحمد بن يحيى، البدان، تحقيق: د. سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1920م.

8. الجاحظ، عمرو بن بحر، التبصر بالتجارة، تحقيق: حسن حسني عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983م

9. الحموي، محمد ياسين، تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقي، دمشق، 1945م.

10. الدينوري، أحمد بن داوود، كتاب النبات، تحقيق: محمد حميد الله، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1974م

11. الشملان عبدالله خليفة، بناء السفن الخشبية في دول البحرين، مركز بحرين للدراسات والبحوث، البحرين .

12. العسلي، بسام، فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، 1988م.

13. الطبري، أبوجعفر محمد، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ج2.

14ـ النويري شهاب الدين، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق: يوسف الطويل وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، م10، ج1، 2000م.

15. الكندي أبو عمر، الولاة والقضاة، تحقيق: محمد حسن وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

16. الوكيل محمد السيد، الأمويون بين المشرق والمغرب، جار القلم، دمشق، القسم الأول.

17. بركات، وفيق، فن الحرب البحرية، منشورات معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، 1995م.

18ـ حسيبة ، عزيزي"تطور صناعة السفن الإسلامية في حوض البحر المتوسط من القرن 1-5هـ/ 7م 11م" رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الدكتور يحيى فارس بالمدية، 2015-2016م.

19. خماش، نجدت، الشام في صدر الإسلام، ط1، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1987م

20. سالم، السيد عبدالعزيز، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م.

21. عبادة عبدالفتاح، سفن الأسطول الإسلامي، مطبعة الهلال، مصر، 1913،.

22ـ عبداللطيف عبدالشافي محمد، العالم الإسلامي، ط1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2008م، ص2216، العدوى، إبراهيم أحمد، الأمويون والبيزنطيون، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1953م.

23. عبدالعليم، أنور الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، 1978.

24ـ عثمان، فتحي، الحدود الإسلامية البيزنطية، بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الأول، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

25. كرد علي، محمد، خطط الشام، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2012م، ج5.

26. شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، ط6، المكتب الإسلامي، بيروت، 1991.

27. فهمي علي محمود، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط، ترجمة: قاسم عبده، دار الوحدة، بيروت، 1981م.

28. طقوش محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، ط7، دار النفائس، بيروت- لبنان، 2010م.

29. لجنة كتابة التاريخ العسكري، تاريخ البحرية الليبية من أقدم العصور حتى 1962م، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، 2020م.

30ـ قطب محمد علي، أبطال الفتح الإسلامي، ط1، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2006م.

31 القلقشندي، مآثر الاناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد الفراج، عالم الكتب، بيروت،ج1.

32. ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت- لبنان، 1995م، م4،